

منهج القرطبي في تفسيره وموقفه من التفسير بالرأي وبالمأثور وموقفه من القراءات المتواترة

د/ أميرة المبارك عبد الرحمن الفكي

أستاذ مساعد

كلية العلوم والآداب بمحائل عسير، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية

alamira@kku.edu.sa

المستخلص :

محور هذه الدراسة هو تناول الباحث في هذه الدراسة لمنهج القرطبي في تفسيره وموقفه من التفسير بالرأي وبالمأثور وموقفه من القراءات المتواترة وموقف القرطبي من القراءات الشاذة واللغة والنحو والإعراب والاستشهاد بالحديث الغريب في تفسيره مستعرضاً ذلك في ثلاثة أبواب تناول في الباب الأول منهج القرطبي في تفسيره وموقف القرطبي من التفسير بالمأثور وموقف القرطبي من القراءات المتواترة وتناول الباحث في الباب الثاني موقف القرطبي من القراءات الشاذة واللغة والنحو والإعراب والاستشهاد بالحديث الغريب في تفسيره وأستعرض الباحث في الباب الثالث موقف القرطبي من التفسير الرمزي والتصوف وإيراد الأحكام وأصول الفقه في تفسيره وتناول فيه موقف القرطبي من التفسير الرمزي وموقف القرطبي من التصوف في تفسيره وإيراد الأحكام في تفسيره وموقف القرطبي من أصول الفقه في تفسيره وموقف القرطبي من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وفي خاتمة الدراسة أوجز الباحث ما احتواه البحث بين فصوله ومقدمته من سرد تناول فيه موقف القرطبي وتعرضه كثيراً لآراء الفقهاء، وما دار بينهم من خلافات .

الاهداء

الى روح امي وابي واخواني اللهم اغفر لهم وارحمهم

الى اخواني واخواتي

الى زوجي ورفيق دربي

الى اساتذتي الاجلاء الذين غرسوا في نفسي روح العلم والمعرفة

اهدي لهم جميعا هذا الجهد التواضع

الشكر والعرفان

الشكر اولا واخير لله عز وجل

كما اتقدم بخالص شكري للقائمين على امر هذا الصرح العظيم

مناسبة البحث

١/توضيح منهج الامام القرطبي رحمة الله في التفسير

٢/ترسيخ وتوضيح الطرق التي اتبعها في تفسيره

٣/الاسهام في نشر البحوث و الدراسات المتعلقة بالتفسير

Abstract

The focus of this study is to address the researcher in this study of Qurtubi approach in his interpretation and his position of interpretation of opinion and adherence and his position of frequent readings and the position of Qurtubi from abnormal readings and language and grammar and expressing and citing strange talk in his interpretation crossed in three sections addressed in Part I approach Qurtubi approach and interpretation Qurtubi In the second part, the researcher dealt with the position of Al-Qurtubi from abnormal readings, language, grammar, expressing and citing strange talk in his interpretation.

To explain the symbolic and mysticism and the provisions of jurisprudence and interpretation in which he dealt with the position of Qurtubi interpretation of the symbolic and the position of Qurtubi mysticism in his interpretation and the provision of provisions in his interpretation and the position of Qurtubi jurisprudence in his interpretation and the position of Qurtubi from weak and placed conversations and in the conclusion of the study summarized what the researcher Search between the chapters and the introduction of the narrative in which he addressed the position of Al-Qurtubi and much exposure to the views of scholars.

مقدمة:

علم التفسير لسمو موضوعه ، وعظيم فائدته فإنه من أشرف العلوم الدينية والعربية إن لم يكن أشرفها جميعاً ، لذلك كانت الحاجة إلى دراسته وتعلمه ملحة وضرورية ، حيث لا يفهم القرآن ويتدبر بدون فهم معانيه لذلك كانت دراسته من فروض الكفاية ، قال تعالى: ﴿أَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) ٥﴾ .

أما المصادر الأصلية للتفسير فهي :

التفسير بالمأثور ويتضمن الآتي:

١ . ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن .

٢ . ما كان تفسيراً بالسنة.

٣ . تفسير القرآن بما له حكم المرفوع إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من أقوال الصحابة.

٤ . تفسير القرآن بما أجمع الصحابة أو التابعين.

لقد أثنى العلماء على تفسير القرطبي، وأبرزوا قيمته العلمية، يقول الإمام الذهبي عنه: "وقد سارت بتفسيره - أي بتفسير القرطبي - العظيم الشأن الركبان" وهو كامل في معناه.

وقال ابن فرحون وهو يتحدث عن مؤلفاته: جمع القرطبي في تفسير القرآن كتاباً كبيراً... وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً" وكذلك قال الداودي في طبقاته. وبين "ابن العماد" في شذراته: أن تفسير القرطبي يحكي مذاهب السلف كلها وأن فوائده كثيرة، ويذكر ابن خلدون في مقدمته: أن تفسير القرطبي له شهرة عريضة بالمشرق، وإذا كان تفسير القرطبي له تلك المكانة والشهرة ، فلا غرو أن يتأثر المفسرون الذين جاءوا بعده بكتابه فينتفعوا به، ويفيدوا منه ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين تأثروا بتفسير القرطبي الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ، فلقد تأثر به ابن كثير ونقل عنه كثيراً بالمعنى لا بالنص.

الباب الأول

منهج القرطبي في تفسيره

إن الذي يطلع على تفسير القرطبي يجد أن صاحبه قد جمع فيه أحكام القرآن حقيقة، وذلك لأنه لم يكن منشغلاً بالدنيا كغيره، ولم يسرد في كتابه بكثير من القصص، بل كان همه الأكبر جمع الأحكام الفقهية مع أدلتها ومناقشتها في أغلب الأحيان والرد على بعضها، وتطرق للقراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والرد على أهل البدع والزيف، وهو القائل وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها فإنه يقال: "من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله"^١ وكان يرد في كثير من المواقف على المعتزلة.

وكان يكثر الاستشهاد بأشعار العرب، وقد فضله شيخ الإسلام ابن تيمية على تفسير الكشاف حيث قال: "وتفسير القرطبي خير منه - يعني الكشاف - وأقرب على طريقة أهل الكتاب والسنة وأبعد عن البدع"^٢.

كما أنه يعرض للأحكام ذكراً لأدلتها، مستفيضاً في ذكر مسائل الخلاف ثم يناقشها ويرد عليها غير متعصب، وربما انحاز في كثير من الأحكام إلى غير مذهبه المالكي تمثيلاً مع الدليل والحجة الساطعة. ولم يكن القرطبي شديداً على من خالفه في الرأي أمثال ابن العربي وابن حزم، بل ربما كان يعتب على ابن العربي في شدته على من يخالفه في الرأي. والذي يتابع القرطبي في تفسيره يرى أنه يعرض الآية والآيتين والثلاث وهكذا، ثم يتبعها بالشرح، ويجعل ذلك على هيئة مسائل قد تتجاوز الثلاثين مسألة، وأول ما يبدأ به الغالب هو الإعراب ثم وجوه القراءات، ويعرج على المعاني اللغوية، ثم بعد ذلك يتطرق إلى الأحكام ويبين آراء الفقهاء، ويستشهد بالشعر، أو بعض القصص إذا رأى مناسبتها لتفسير الآية.

أولاً : موقف القرطبي من التفسير بالرأي:

إنه يجيز التفسير بالرأي، ويفتح المجال لكل من عنده مؤهلات الفهم والاستنباط، ويقول: إن كتاب الله يحوي بين دفتيه آيات تحث على الاعتبار والتدبر، يقول الله تعالى: **أَكْتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)** ^٣، ويقول: **أَأَلْفَلَا يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)** ^٤ ويقول: **أَأَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)** ^٥ فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الله تعالى دعا عباده إلى تدبر القرآن، والاعتبار بآياته والاعتنا بمواعظه، وذلك لا يكون إلا بفهمه وتأويله. وهل يعقل أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له، ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا دراية لك بشأنه، إن ذلك يكون ضرباً من العبث تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^٦.

١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١ ص ٣.

٢ مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٥٨.

٣ سورة ص آية ٢٩.

٤ سورة الزمر آية: ٢٧.

٥ سورة محمد آية: ٢٤.

٦ تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٢: ١٥٣: ١٥٦ حيث فصلنا القول في ذلك - انظر موقف العلماء من التفسير ما لراي في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٧، ٨٤ مناهل العرفان ج ١ ص ٥٢٢ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٢.

والذي أريد أن أنبه إليه يجب إلا يفهم من موقف القرطبي هذا أنه أهمل التفسير بالمأثور، كلا إنه دعا إليه أولاً كما يفهم من عبارته "والنقل والسماع لا بد - أي للمفسر - منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط إلى آخر ما قلته" وسنرى موقفه من التفسير بالمأثور حين الحديث عليه.

هذا موقف - القرطبي - وقد سبقه في ذلك ابن عطية والطبري والغزالي وغيرهم - ولقد استشهد بعض الباحثين المعاصرين بموقف: "الغزالي والقرطبي - على جواز التفسير بالرأي والدعوة إليه"^١.

ثانياً : موقف القرطبي من التفسير بالمأثور:

عندما يطلع الإنسان على تفسير الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - يجد أنه إذا وجد في تفسير آية حديثاً مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يشرح به الآية المراد تفسيرها ويقتصر عليه، ولا يستعرض غيره من آراء المفسرين لأنه لا مجال للاجتهاد والرأي مع النص، فأنظر إلى تفسيره لقول الله جل شأنه: **أَأَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)** ^٢

، فسر - القرطبي - هذه الآية بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال: في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هل تدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلبي، فيقول فإني لا أجز على نفسي إلا شاهداً من، قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنك كنت أناضل" وبين القرطبي أن هذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه^٣.

وأنظر إليه في تفسيره لقول الله تعالى: **" أَأَفَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) "** ^٤ فسر القرطبي الحساب اليسير بأنه الذي لا مناقشة فيه^٥ ، ثم قال: "كذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حوسب يوم القيامة عذب" قالت قلت يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى **" فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) "**

فقال: "ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب" الحديث^٦.

ويستعرض القرطبي بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى جانب ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الحالة نرى القرطبي يرجح المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرد ما يخالفه ، فانظر إلى تفسيره في سورة يونس عند قول الله تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة"^٧ ، اعتمد في تفسير (الزيادة) على ما جاء وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأن المراد (بالزيادة: النظر إلى وجهه الكريم) الحديث^٨،

١ تفسير التحرير للطاهر بن عاشور ج ١، المقدمة الثالثة.

٢ سورة يس آية: ٦٥.

٣ تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٨.

٤ سورة الانشقاق آيات ٧-٨.

٥ تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٢.

٦ أخرجه البخاري في صحيحه أنظر البخاري بحاشية السندي ج ٣ ص ١٣٩، وأخرجه مسلم باب إثبات الحساب ج ١٧ ص ٢٠٨، وأخرجه الترمذي في أبواب التفسير - انظر تحفة الأهودي ٢٥٦/٩.

٧ سورة يونس آية: ٢٦.

٨ تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٤ وقال ابن كثير رواه ابن أبي حاتم من حيث زهير.

ثم قال القرطبي - بعد إيراد الحديث - وهو قول أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رواية، وحذيفة، وعبادة بن الصامت، وكعب بن عجرة، وأبي موسى، وصهيب، وابن عباس في رواية وهو قول جماعة من التابعين، وهو الصحيح في الباب^١.

ثالثاً: موقف القرطبي من القراءات المتواترة:

من خلال إطلاعنا على تفسير القرطبي نراه أحياناً يرجح بعض القراءات على بعض كما في قول الله جل شأنه: "مالك يوم الدين يقول: "اختلف العلماء أيهما أبلغ ملك أو مالك؟ والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر^٢، وارتضى القولي بأنه "ملك" أبلغ من "مالك" فقال في تعقيبه على من قال: أن مالكا أبلغ لزيادة حروفه التي تقتضي زيادة ثواب من قرأ به، أن "مالك" أبلغ معنى من "ملك" يقول القرطبي:

"قلت: وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف فلقارئه عشر حسنات زيادة عن قرأ "ملك" قلت هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى. وقد ثبت القراءة بملك وفيه من المعنى ما ليس في مالك على علمنا والله أعلم"^٣. ونرى هنا الإمام القرطبي يرجح قراءة "ملك" على "مالك" وكلا القراءتين صحيحتان.

١ تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٤٠، وأنظر صحيح مسلم في تفسير الآية المذكورة في باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ج ٣ ص ١٧ والترمذي في أبواب التفسير ج ٤ ص ٣٤٩.
٢ قرأ: (مالك) بإثبات الألف بعد الميم، عاصم والكمثاني، ويعقوب وخلف العاشر، وقرأ الباقون "ملك" بحذف الألف وكسر اللام والكاف، على وزن "حذر" على أنه صيغة مبالغة - أنظر المعنى في توجيه القراءات العشرة المتواترة د/ محمد سالم محسين ج ١ ص ١٢٥.
٣ تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ فما بعدها.

الباب الثاني

موقف القرطبي من القراءات الشاذة:

إن كثيراً من الناس لا يفرقون بين القراءة المتواترة والشاذة، وبين القراءات الصحيحة، وغيرها، وضابط القراءات الشاذة والمتواترة يبينه الإمام ابن الجزري بقوله: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها في القراءة الصحيحة التي لا أجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف.

وارتضى الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - هذا الضابط وأشاد به وأثنى على قائله ثناء عاطراً^{١٨}. وإذا كانت الصلاة لا تجوز بالقراءة الشاذة فإن لها مجالات أخرى كثيرة، فلقد احتج بها النحويون على مذاهبهم وآرائهم^{١٩}.

ثم أن كثيراً من الفقهاء احتجوا ببعض القراءات الشاذة في نصره بعض الآراء والمذاهب، ومن هؤلاء الفقهاء الإمام أبو حنيفة، والثوري، والمزني، فقد استدلوا بقراءة ابن مسعود "فصيام ثلاثة أيام متتابعات" على اعتبار التتابع في صوم كفارة اليمين^{٢٠}.

ولقد أبرز القرطبي في عرضه وتوجيهاته للقراءات الشاذة مثل هذه الأشياء، فنراه يذكر بعض ما ذهب إليه النحويون على ضوء القراءة الشاذة..... فانظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "يا بني إن الله اصطفى لكم الدين"^{٢١} كما يستعرض القرطبي أننا توجيهه للقراءات الشاذة لهجات بعض القبائل ولغاتها فانظر إلى تفسير لقول الله جل شأنه: "أهدنا الصراط المستقيم"^{٢٢}، يقول القرطبي "وقرئ الصراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق سترط من يسلكه، وقرئ بين الزاي والصاد، وقرئ بزاي خالصة، وحكى سلمة عن الفراء قال: الزراط بإخلاص الزاي لغة لعذرة وقلب، وبني القين قال: وهؤلاء يقولون في أصدق أزقد، وقد قالوا الأزرد في الأسد، ولزق به في لصق به"^{٢٣}. والملاحظ على القرطبي في تفسيره في توجيه القراءات الشاذة - أنه كان أحياناً يرد معنى القراءة الشاذة إلى قراءة الجماعة، كما في قوله تعالى: (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)^{٢٤}.

١٨ الإتيان ج ١ ص ٩٤ فما بعدها.

١٩ أنظر أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في القراءات والنحو ص ٢٤٠.

٢٠ أنظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٣.

٢١ سورة البقرة آية: ١٣.

٢٢ سورة الفاتحة آية: ٥.

٢٣ تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٨.

٢٤ سورة البقرة آية: ١١٩، وأنظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٩٢، ج ٣ ص ١٥.

أولاً: موقفه في اللغة من تفسيره:

لقد حث القرطبي في مقدمة تفسيره على البحث في ألفاظ القرآن والطلب منه واستشهد على ذلك بما نقله من الأحاديث والأخبار، وحاول القرطبي أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم ، وأن يوضحها بلغة العرب، فبين معنى الكلمات ومدلولاتها بما قاله أئمة اللغة، وما تناقله العلماء عنهم.

وكان القرطبي يفاضل بين الآراء ، ويرجح بعضها أحياناً بما تشهد له اللغة وتؤيده . فأنظر إلى تفسير لقول الله تعالى: "صفراء فاقع لونها تسر الناظرين"^{٢٥}.

فرجح قول من قائل: أنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة، ورد قول الحسن الذي قال: صفراء معناها سوداء فلم يرتضي القرطبي هذا القول لأن اللغة لا تؤيده ورجح الرأي الأول، ووصف قول الحسن بأنه شاذ، ولا يستعمل هذا المعنى إلا مجازاً في الإبل - قال تعالى: "كأنه جمانة صفر"^{٢٦}، وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة، ولو أراد السواد لما أكدته بالفقوع.

وذلك لغة مختص بالصفرة: وليس يوصف السواد بذلك ، تقول العرب: أسود حالك.. وأحمر قان، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع، هكذا نص نقله اللغة عن العرب. قال الكسائي: "يقال فقع لونه يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرتة"^{٢٧}، وقد احتكم القرطبي إلى اللغة في مناصرة بعض المذاهب الفقهية والرد على بعض الفقهاء ، فأنظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني" الآية^{٢٨}.

ثانياً: موقف القرطبي من النحو والإعراب في تفسيره:

الإمام القرطبي كمفسر لكتاب الله تعالى يريد أن يكشف المعنى وأن يجليه ، نراه يستعرض في تفسيره مذاهب النحويين وتخريجاتهم، ويستعرض خلافتهم في الإعراب، فأنظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "كتاب الله عليكم"^{٢٩}، يقول القرطبي: "كتاب" نصب على المصر المؤكد أي حرمت هذه النساء كتاباً من الله عليكم، ومعنى "حرمت عليكم" "كتب الله عليكم".

وقال الزجاج والكوفيون: هو نصب على الإغراء، أي ألزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله وفيه نظر على ما ذكره أبو علي . فإن الإغراء لا يجوز فيه تقديم المنصوب على حرف الإغراء فلا يقال: زيداً عليك أو زيداً دونك، بل يقال: عليك زيداً ودونك عمراً، وهذا الذي قاله صحيح على أن يكون منصوباً بـ "عليكم" وأما على تفدي الفعل فيجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه^{٣٠}.

وهكذا يمضي القرطبي في تفسيره مرتكزاً على اللغة والنحو والإعراب والشعر لأنه قد استخدم في تفسيره كثيراً من أشعار العرب، ولا يكاد يمر بتفسير آية إلا أورد فيها بيتاً من الشعر.

٢٥ سورة البقرة آية: ٦٩، وأنظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٠.

٢٦ سورة المرسلات آية: ٣٣.

٢٧ تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٠.

٢٨ سورة البقرة آية: ٢٤٩، وأنظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٤٩.

٢٩ سورة النساء آية: ٢٤.

٣٠ تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٣ فما بعدها.

وكان القرطبي يذكر الشعر لأغراض مختلفة، فتارة يذكره لبيان معنى لغوي، وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية، أو بلاغية أو للاستدلال على توجيه رأي في الإعراب أو غير ذلك. فأنظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل أن كنتم مؤمنين"^{٣١}، وفي تفسيره لقول الله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين"^{٣٢}، استدلل بالشعر على قاعدة بلاغية أيضاً، وهي تقديم المفعول على الفعل للاهتمام. فقال في المسألة الرابعة والعشرين "أن قيل لم قدم المفعول على الفعل قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقدم الأهم، يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبب عنه فقال الساب: إياك أعني، فقال له الآخر: وعنك أعرض. فقدا الأهم، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا نعبد إياك، ونستعين إياك، فيقدم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن وقال العجاج:
إياك أدعو فتقبل ملقى وأغر خطاياي وكفر ورفي

ثالثاً: الاستشهاد بالحديث على الغريب والنحو في تفسير القرطبي:

استشهد القرطبي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غريب القرآن ورد هذا في كثير من تفسير القرطبي ونذكر هنا مثلاً واحداً، ففي قول الحق جل شأنه: "وبعولتهن أحق بردهن"^{٣٣}.
يقول القرطبي: أن البعل معناه الزوج، وأن البعال معناه: الجماع، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيام التشريق: "أنها أيام أكل وشرب وبعال"^{٣٤}، ويبدو أنه لا خلاف بين النحويين في هذا.
أما الاحتجاج بالحديث في النحو فهو موضع خلاف بين العلماء فلقد منعه كثير من النحاة وأجازه بعضهم^{٣٥} والقرطبي كان يحتج بالحديث في النحو، وهو بهذا يوافق من ذهب إلى جواز الاحتجاج بالحديث بالنحو حتى ولو كان مروياً بالمعنى فأنظر إلى تفسيره لقول الله الحق تعالى: "هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة"^{٣٦} لتأنيث لفظ الذرية كقوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنت "ولدته" لتأنيث لفظ "الخليفة" وروي من حديث أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أي رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً"^{٣٧}.
وفي تفسيره لقول الحق جل شأنه: "أَفَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ٤٠"^{٣٨}.

يقول القرطبي: قوله تعالى: "ولن تفعلوا" نصب "بلن" ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة ومنه بيت النابغة:

فلن أعرض أبيت اللعن بالصفد

٣١ سورة البقرة آية: ٩١، وأنظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠.

٣٢ سورة الفاتحة آية: ٥.

٣٣ سورة البقرة آية: ٢٢٨.

٣٤ تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٠، والحديث أخرجه أبو داود، وابن ماجة في كتاب الصيام.

٣٥: خزائن الأدب ج ١ ص ٩، وأنظر كتاب المدارس النحوية ص ١٩، للدكتور شوقي صيف.

٣٦ سورة آل عمران آية: ٣٨.

٣٧ أخرجه الترمذي بمعناه عن أبي هريرة، تحفة الأحوذ ج ٦ ص ٢٦٤،

٣٨ سورة البقرة آية: ٢٤.

وفي حديث ابن عمر، حين ذهب به إلى النار في منامه ف قيل له: "لن ترع"^{٣٩}، هذا على تلك اللغة. والقرطبي - رحمه الله تعالى - ممن يجوز رواية الحديث بالمعنى ، وخالف في ذلك كثيراً من العلماء والفقهاء في قول الله جل ثناؤه: **أَ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)**

"والقول بالجواز - أي جواز رواية الحديث بالمعنى - هو الصحيح إن شاء الله تعالى - وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعاني ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها، وري عن واثلة بن الأسقع أن قال: "ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ، حسبكم المعنى" وساق القرطبي كثيراً من الآثار في الدليل على ذلك ... ثم قال: "فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم - نضر الله أمراء سمع مقالتي فبلغها كما سعمها... الحديث"^{٤٠} ، وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلاً أن يقول عند مضجعه في دعاء علمه: "أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت"^{٤١}، ثم يمضي القرطبي فيقول: ... ثم أن هذا الحديث بعينه، قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد، وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة، وذلك دليل على الجواز"^{٤٢}.

٣٩ الحديث أخرجه ابن ماجة في باب تعبير الروا لم ترع ج ٢ ص ٢٣٦ وأخرجه البخاري بلفظ لن ترع ج ١ ص ٢٤٦، وأخرجه أبو داود بلفظ لم ترع ج ٢ ص ١٤٩.

٤٠ أخرجه الترمذي عن عمر بن سليمان في أبواب العلم، أنظر جامع الترمذي ج ٤ ص ١٤١.

٤١ أخرجه ابن ماجة في سننه عن البراء بن عازب ج ٢ ص ٢٣١ وتتمة - اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمر لك، وألجأت ظهر إليك، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك.

٤٢ تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٣ بتصرف.

الباب الثالث

موقف القرطبي من التفسير الرمزي والتصوف وإيراد الأحكام وأصول الفقه في تفسيره

أولاً: موقف القرطبي من التفسير الرمزي:

هذا النوع من التفسير هو ما يعرف بالتفسير الرمزي أو الإشاري^{٤٣}. وتتلخص فكرة هذا النوع من التفسير "وهو أن بعض الناس يحاول أن يصرف ألفاظ القرآن الكريم عن ظاهرها وأن يخرج بها عن مدلولاتها وما تحتمله من معان ثم يختار معنى غريباً يدعي أن اللفظ لا يدل عليه بطريق الظاهر، وإنما يدل عليه بطريق الرمز والإشارة ويسمى ذلك التفسير الرمزي أو الإشاري". ومن أشهر كتب التفسير الإشاري، تفسير الألويسي (المتوفى سنة ١٢٧٠هـ) ويسمى (روح المعاني)، فيعد أن يورد فيه مؤلفه تفسير الآيات حسب الظاهر يشير إلى بعض المعاني الخفية التي تستنبط بطريق الرمز والإشارة^{٤٤}.

واشترط العلماء لقبول التفسير الرمزي شرطين:

أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية. وثانيهما: أن يكون له شاهد نص أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض، فالشرط الأول وهو موافقة اللغة - لا بد منه - ضرورة أن القرآن عربي وكل تفسير لا تساعد عليه قواعد اللغة يجب رده والحكم ببطلانه. والشرط الثاني: وهو شهادة الشرع - لا بد منه كذلك - فلو لم يشهد لصحة هذا التفسير شاهد من الشرع أو كان له معارض صار هذا التفسير من جملة الدعاوى التي لا دليل عليها، والدعوى المجردة عن الليل غير مقبولة باتفاق العلماء^{٤٥}. أما موقف القرطبي رحمه الله تعالى - من التفسير الرمزي - فقد رفضه ولم يقبله وخير شاهد على قوله ما جاء في تفسيره لقول الحق جل شأنه: "يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس"^{٤٦}. يقول بعد أن بين أن الضمير للعسل في قول الجمهور... "قال القاضي أبو بكر بن العربي: من قال أنه القرآن فيعيد، ما أراه يصح عنهم. ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً، لأن مساق الكلام كله للعسل ليس للقرآن فيه ذكر... الخ"^{٤٧}. ثم قال: قال ابن عطية^{٤٨} وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي فقال له بعض من حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين وأبته الآخر وظهرت سخافة قوله. أه^{٤٩}.

٤٣ أنظر ص ١٣٤ تفسير الألويسي، وهو خير من يمثل التفسير الرمزي أو الإشاري.

٤٤ أنظر مباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح ص ٢٩٦ بتصرف.

٤٥ أنظر رسالة "منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم" د/ عبد الوهاب فايد نقلاً عن الموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٢٩٤، والتفسير والمفسرون د/ محمد حسين الذهبي ج ٢ ص ٢٤. وأنظر القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٣٠٥، د/ القسبي محمود.

٤٦ سورة النحل آية: ٦٩.

٤٧ أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ ص ١١٥٧، ١١٥٨ بتصرف.

٤٨ أنظر تفسير ابن عطية ج ٨ ص ٤٦٣.

٤٩ تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٣٦.

ثانياً: موقف القرطبي من التصوف في تفسيره:

أما موقف القرطبي من التصوف فإنه كان يقبله أحياناً ويرفضه أحياناً أخرى. أنظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم"^{٥٠}.

يقول القرطبي "قال بعد أرباب المعاني: عجل كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مرد فقد بريء من ظلمه" وهاجم القرطبي هذا الرأي ولم يرتضه لأن السياق والقرائن لا تدل عليه - فقال: "والصحيح أنه هنا عجل على الحقيقة عبده كما نطق به التنزيل والحمد لله".

ثم قال في قول الله جل شأنه: "أ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ بِآيَاتِكُمْ مُبْطِلًا وَأَنتُمْ أَنفُسَكُمُ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ فَلَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَتَأْتُوا بِحَادِثَاتٍ ظَاهِرَاتٍ لَكُمْ لَسْتُمْ بِبَارئِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ" فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ دَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)"

يقول القرطبي: "قال أرباب الخواطر ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشبهات" ورد القرطبي ذلك، فقال: "والصحيح أن قتل على الحقيقة هنا، والقتل إماتة الحركات، وقتلت الخمر كسرت شدتها بالماء"^{٥١} وفي تفسيره لقول الحق جل ثناؤه: "أ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلُمُهُ اللَّهُ وَتِزْوَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)" يقول القرطبي: "قال أهل الإشارات: ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى فإن التقوى زاد الآخرة، قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ولا قبيت بعد الموت من تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله

وأنتك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال آخر:

الموت بحر طامح موجه

تذهب فيه حيلة السابح

يا نفسي إني قائل فاسمعي

مقالة من مشفق ناصح

لا يصحب الإنسان في قبره

غير التقى والعمل الصالح"^{٥٢}

ومن أبرز مصادر القرطبي من التفسير الصوفي تفسير القرآن العظيم، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري^{٥٣}. فكان القرطبي ينقل عن "التستري" بعض الإشارات الواضحة التي لا تخالف الشرع واللغة. فأنظر إلى تفسير القرطبي لقول الباري جل شأنه: "وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"^{٥٤}.

٥٠ سورة البقرة آية: ٥٤.

٥١ تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠١.

٥٢ تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١٢.

وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي المتوفى سنة ٤١٢ هـ "المشهور بالسلمي" فقد نقل القرطبي كثيراً من تفسير "السلمي" المعروف بحقائق التفسير وجرى في نقله على نهجه السابق فلم ينقل ألباراً أو رموزاً غامضة، وإنما نقل الإشارات التي لا تناقض اللغة والشرع، فأنظر إلى تفسير القرطبي لقول الحق جل ثناؤه: "أَيُّكُمْ نَعْبُدُ وَإِيَّاكُمْ نَسْتَعِينُ (٥)"^{٥٥} يقول القرطبي: سمعت ابا حفص الفرغاني يقول: من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين فقد برئ من الجبر والقدر"^{٥٦}.

ثالثاً : إيراد الأحكام في تفسيره:

إن الذي ينظر على تفسير الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - يجده قد توسع في ذكر الأحكام الفقهية، وتعرض كثيراً لأراء الفقهاء ، وما دار بينهم من خلافات، وعنوان تفسيره يشير إلى هذا من أول وهلة فقد سماه "الجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمن السنة وآي الفرقان" ، والقرطبي في تناوله للأحكام كان أحياناً يكتبي برأي مالك ، وبعض فقهاء المالكية، وتارة يكتبي بالعرض والتوجيه فهذه الآراء دون التعقيب عليها ومناقشتها . فأنظر إلى تفسيره لقول الحق جل شأنه: "وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)"^{٥٧}.

وفي كثير من الأحيان لم يكن القرطبي يقتصر على الفقه المالكي بل كان يضم إليه فقه المذاهب الأخرى، ونستطيع أن نسمي ذلك بالفقه المقارن، ومنهجه في ذلك أنه يسلك العرض والتوجيه. فأنظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)"^{٥٨}، فقد قال في المسألة الرابعة: "واختلف العلماء في الأفضل من الفطر أو الصوم في السفر فقال مالك والشافعي في بعض ما روي عنهما: الصوم أفضل لمن قوي عليه" وجل مذهب مالك التخيير، وكذلك ذهب الشافعي. قال الشافعي ومن اتبعه: وهو مخير ولم يفصل وكذلك "ابن عليه" لحديث أنس قال سافرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم أخرجه مالك البخاري ومسلم"^{٥٩}.

ثم ذكر آراء بعض الصحابة والتابعين في أيهما أفضل الصوم أو الفطر في السفر - فالقرطبي في هذا النص استعرض آراء الفقهاء ووجه هذه الآراء واكتفى بذلك، فلم يعلن معارضته لرأي من الآراء"^{٦٠}.

٥٢ نسبة إلى تستر - بضم التاء وسكن السين وفتح التاء الثانية، بلد من الأهواز ولقد اختلف في سنة وفاة هذا المفسر فقيل سنة ٢٧٣ هـ وقيل ٢٨٣ هـ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٩.

٥٤ سورة البقرة آية: ٤٥، وأنظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٧٥.

٥٥ سورة الفاتحة آية: ٤.

٥٦ تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٥، وأنظر حقائق السلمي نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠ تفسير ص ٦٠، نقلًا عن الأستاذ الدكتور/ القصبى محمود زلط في كتابه القيم: القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٣١٥.

٥٧ سورة البقرة آية: ١٦٩، وتفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٧ فما بعدها.

٥٨ سورة البقرة آية: ١٨٤.

٥٩ أخرجه البخاري في كتاب الصوم ج ١ ص ٢٢٨.

٦٠ تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٠.

والقرطبي في بعض الأحيان يسلك في الفقه المقارن مسلك المناقشة والترجيح، ويؤيد ذلك بالحجة والدليل والأمثلة على ذلك كثير.

فانظر إلى تفسيره لقول الله تعالى: "أُوتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)"^{٦١}. ولم يتعصب القرطبي لمذهبه مذهب المالكية فيرجحه وإن ضعفت حجته، ولكنه يرجح غيره من المذاهب، إذا رأى الحق في جانبه ويخرج على المذهب المالكي، ويعلن معارضته له، كما لم يلتو القرطبي في عرض حجة الخصم، أو يأتي بها مبتورة مهلهة. بل كان يعرضها بدقة وأمانة، وكان يضيف عليها كثيراً من الشرح والتوضيح: فانظر إلى تفسيره لقول الله جل شأنه: "أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)"^{٦٢}، يقول في المسألة الثانية عشرة: "قال مالك والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي: إذا كان ناسياً فظن أن ذلك فطره فجامع عامداً كان عليه القضاء ولا كفارة عليه، قال بان المنذر: وبه نقول، وقيل في المذهب: عليه القضاء والكفارة، إن كان قاصداً لهتك حرمة صومه جرأة وتهاوناً.

قال أبو عمر: وكان يجب على أصل مالك ألا يكفر، لأن من أكل ناسياً فهو عنده مفطر بقضي يومه ذلك. فأى حرمة هتك وهو مفطر، وعند غير مالك: ليس بمفطر كل من كان ناسياً لصومه" ورجح القرطبي هذا الرأي مع أنه مخالف لمذهب مالك. ثم دلل على ذلك فقال: "قلت وهو الصحيح وبه قال الجمهور: أن من أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه وأن صومه تام لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإتما هو رزق ساقه الله تعالى إليه ولا قضاء عليه، وفي رواية: وليتم صومه فإن الله أطعمه وسقاه"^{٦٣}.

رابعاً: موقف القرطبي من أصول الفقه في تفسيره:

لقد تعرض القرطبي لأصول الفقه في تفسيره فذكر كثيراً من أدلته وقواعده، وبين أثناء عرضه للأحكام كيف تبنى الفروع عليها، وفي بعض الأحيان كان يتطرق إلى ما دار من خلافات بين المذاهب حول هذه القواعد والأدلة، والقرطبي إن لم يتوسع في كل هذا التوسع المذكور في كتب الأصول، فإن المقام يضيق عن ذكر كل ما جاء به، فانظر على تفسيره لقول الحق تعالى: "ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام"^{٦٤}.

يقول الإمام القرطبي في المسألة الثالثة: من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع، فقد أكله بالباطل.

٦١ سورة البقرة آية: ١٩٦.

٦٢ سورة البقرة آية: ١٨٧.

٦٣ أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والسنائي عن أبي هريرة: بلفظ من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه" ورواية الترمذي: "من أكل أو شرب ناسياً فلا يفر فإنما هو رزق رزقه الله، انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور ناصف ج ٢ ص ٧٨.

٦٤ سورة البقرة آية: ١٨٨.

ومن الأكل بالباطل أن يقضي القاضي لك. وأنت تعلم أنك مبطل. فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء القاضي لأنه إنما يقضي بالظاهر، وهذا إجماع في الأموال، وإن كان عند أبي حنيفة قضاؤه ينفذ في الفروج باطناً، وإذا كان قضاء القاضي لا يغير حكم الباطن في الموال فهو في الفروج أولى، وروى الأئمة عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فاقضي له على نحو ما أسمع فمن قطع له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع من نار" وفي رواية: "فليحملها أو يذرها"^{٦٥}، وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء، ثم قال القرطبي: "وهو نص في أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير الباطن، وسواء كان ذلك في الأموال والدماء والفروج: إلا ما حكى عن أبي حنيفة في الفروج" عنده أن قضاء القاضي ينفذ في الفروج باطناً بمعنى أنه لو شهد رجلان بطلاق رجل لزوجته وحكم القاضي بشهادتهما فإن فرجها يحل لأحد الشهود ممن يعلم أن القضية باطلة"^{٦٦}.

وزعم أنه لو شهد شاهد زور على رجل بطلاق زوجته، وحكم الحاكم بشهادتهما لعدلتها عنده - فإن رجها يحل لمتزوجها - ممن يعلم أن القضية باطل - بعد العدة، وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده، لأنه لما حلت للأزواج في الظاهر كان الشاهد وغيره سواء، لأن قضاء القاضي قطع عصمتها، وأحدث في ذلك التحليل والتحرير في الظاهر والباطن جميعاً، ولولا ذلك ما حلت للأزواج.

واحتج بحكم اللعان وقال: "معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها باللعان الكاذب الذي لو علم الحاكم كذبها فيه، لحدّها، وما فرق بينهما - فلم يدخل هذا في عموم قوله عليه الصلاة والسلام "فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه" الحديث"^{٦٧}. فالقرطبي قد بين أن الدليل الذي استدلت به الجمهور على أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن، من قبيل النص، أي لا يحتمل تأويلًا، ولا يصح أن يعارض بدليل آخر، ولهذا رجح ما ذهب إليه أبو حنيفة كما يفهم من كلامه.

خامساً: موقف القرطبي من الأحاديث الضعيفة والموضوعة

رغم أن القرطبي كانت له وقفات كثيرة جداً في نقد الأحاديث كما كانت له وقفات في تصحيح بعضها مع ما وجه إليها من نقد، رغم هذا وذلك، فقد أورد القرطبي في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولم يعقب عليها أو يذكر ما وجه إليها من نقد.

فانظر إلى تفسيره لقول الله جل شأنه: "أَوْ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)"^{٦٨} فقد قال: "روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه - يعني يصير ولده رقيقاً، فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق الولد.

٦٥ أخرجه مسلم في كتاب الأفضلية ج ١٢ ص ٤.

٦٦ القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٣٥٩.

٦٧ تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨ فم بعدها.

٦٨ سورة النساء آية: ٢٥.

وقال سعيد بن جبير: ما نكاح الأمة من الزنى إلا قريب. قال الله تعالى: **« وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ »** أي عن نكاح الإمام، وفي سنن ابن ماجة عن الضحاك بن مزاحم قال: سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر)^{٦٩}.

ولم يذكر القرطبي ما وجه إلى هذا الحديث من طعن، مع أن الإمام ابن الجوزي: أخرجه من حديث أنس وقال فيه: سلام بن سوار منكر الحديث عن كثير بن سليم كذاب، ومن حديث علي، وقال فيه: عمرو بن جميع كذابان، وعلى هذا فلا يشفع للحديث أن ابن ماجة أخرجه في سننه بل، أن إخراج "ابن ماجة" لمثل هذا الحديث عن طريق الكذابين - كما يقول الدكتور أبو العلا: أنزله بمكانة كتبه العلمية إذا قيست بالصحيحين أو بقية السنن^{٧٠}.

خاتمة :

نجد أن القرطبي قد توسع في ذكر الأحكام الفقهية وتعرض كثيراً لآراء الفقهاء، وما دار بينهم من خلافات وعنوان تفسيره يشير إلى ذلك من أول وهلة، فقد سماه الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه السنة وآيا الفرقان. تناول القرطبي للأحكام حيث كان يكتفي أحياناً برأي مالك. وبعض فقهاء المالكية وتارة يكتفي بالعرض والتوجيه في هذه الآراء دون التعصب عليها ومناقشتها. وفي كثير من الأحيان لم يكن القرطبي يختصر على الفقه المالكي بل كان يضم إليه فقه المذاهب الأخرى ونستطيع أن نسمي ذلك بالفقه المقارن. عدم تعصب القرطبي لمذهبه كان القرطبي يعرض الآية والآيتين والثلاث ثم يتبعها بالشرح ويجعل ذلك على هيئة مسائل قد تتجاوز الثلاثين مسألة. حيث كان القرطبي يفاضل بين الآراء ويرجح بعضها أحياناً بما تشهد له اللغة وتؤيده. فيرجحه وإن ضعفت حجته ولكنه يرجح غيره من المذاهب الأخرى إذا رأى الحق في جانبها. مسلك القرطبي في الفقه المقارن مسلك المناقشة والترجيح ويؤيد ذلك بالحجة والدليل. وكان القرطبي يعرض آراء المفسرين في كثير من الأحيان وفي بعض الأحيان يتعقب ويناقش ما ينقل من الآراء ويرد عليها، وإذا وجد القرطبي في تفسير الآية حديثاً مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يشرح به الآية المراد تفسيرها ويختصر عليها ولا يستعرض غيره من آراء المفسرين لأنه لا مجال للاجتهاد والرأي مع النص.

٦٩ تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٧، والحديث أخرجه ابن ماجة في سننه ج ١ ص ٩٨ برقم ١٨٦٢.

٧٠ أنظر الموضوعات لابن الجوزي ج ١ ص ٢٦١، وابن الجوزي المحدث د/ أبو العلا - ص ٨٤.

المراجع :

- ١ . مقدمة تفسير ابن تيميه ج ١٣
- ٢ . الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ٢
- ٣ . مقدمة في أصول التفسير عن ابن تيمية
- ٤ . الإتقان للسيوطي ج ٢
- ٥ . تاريخ الإسلام للذهبي ج ٢٧
- ٦ . مقدمة ابن خلدون
- ٧ . ابن كثير ج ١
- ٨ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١
- ٩ . مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية
- ١٠ . تفسير القرطبي ج ١
- ١١ . تفسير الطبري ج ١
- ١٢ . مناهل العرفان ج ١
- ١٣ . التفسير والمفسرون ج ١
- ١٤ . تفسير التحرير للطاهر بن عاشور ج ١ ، المقدمة الثالثة.
- ١٥ . البخاري في صحيحه ج ٣
- ١٦ . مسلم باب إثبات الحساب ج ١٧
- ١٧ . الترمذي في أبواب التفسير
- ١٨ . تحفة الأحوذى ٢٥٦/٩ .
- ١٩ . تفسير ابن كثير ج ٢
- ٢٠ . صحيح مسلم في باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ج ٣
- ٢١ . الترمذي في أبواب التفسير ج ٤
- ٢٢ . أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية وأثاره في القراءات والنحو
- ٢٣ . خزانة الأدب ج ١
- ٢٤ . كتاب المدارس النحوية للدكتور شوقي صيف .
- ٢٥ . جامع الترمذي في أبواب العلم ج ٤
- ٢٦ . ابن ماجة في سننه ج ٢
- ٢٧ . تفسير الألويسي ،
- ٢٨ . مباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح

٢٩. رسالة "منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم"
٣٠. أحكام القرآن لابن العربي ج ٣
٣١. تفسير ابن عطية ج ٨
٣٢. وفيات الأعيان ج ١
٣٣. القرطبي ومنهجه في التفسير
٣٤. صحيح البخاري في كتاب الصوم ج ١
٣٥. التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول للشيخ منصور ناصف ج ٢
٣٦. مسلم في كتاب الأفضية ج ١٢
٣٧. الموضوعات لابن الجوزي
٣٨. صحيح البخاري في كتاب الاعتصام باب قول النبي